الجسد أداةً لإزالة الاستعمار

معين ربّاني

ترجمة: س. إ.

ثمة موتٌ مؤكّد، مختارٌ بتعمُّدٍ وتأنٍّ، كان ومايزال أداةً للصراع. فلمّا كان هذا السلاح لا يتطلّب إلاّ جسدًا إنسانيّاً فإنه من الطبيعي جدّاً أن يُستخدَم في نضالات الشعوب المستعمَرَة ضدّ القوى النوويّة. في فيتنام مثلاً لم يكونوا قلائلَ أولئك الرهبان البوذيُّون الذين أَحْرقوا أنفسَهم علنًا احتجاجًا على شراسة الديكتاتوريّة العسكريّة التي حَكَمَتِ الجنوبَ المحتلّ من بلادهم، واحتجاجًا ـ من ثمّ ـ على ملعّبها الأميركيّ الإباديّ. وهذه الأفعال ـ مثلها مثل كثيرٍ من الأفعال الأخرى التي قام بها الشعبُ الفيتناميّ الواسعُ الحيلة ـ خلّفتْ أثرًا عميقًا ودائمًا في الرأي العام الأميركيّ. وفي النهاية، بدأتْ قطاعاتٌ هامّةٌ من المجتمع الأميركيّ، وبحيويّة متزايدة، بحملةِ تعبئةٍ في مواجهة عدوان حكومتها المُفْلس ضد أمّة من الفلاّحين في الطرف الآخر من الكرة الأرضيّة. كما أنّ تلك الأفعال ـ على نحوٍ ما أعلنت القيادةُ الفيتناميةُ بثبات ـ أحدثتْ صدعًا أساسيّاً داخل المجتمع الأميركيّ نفسِه، ولولاه لما تحقّق على الأرجح ذلك النصرُ الأعذبُ في ٢٩ نيسان (أبريل) ١٩٧٥.

بعد مضيّ عقد من الزمن اتّخذ القتالُ الانتحاريّ شكلاً مختلفًا جدّاً. ففي لبنان وسيريلانكا على الأخصّ راح مناضلون محمّلون بالمتفجّرات يفجّرون أنفسَهم من أجل إلحاق أعظم الضرر بعدوٍّ صعبِ المراس. في حالة لبنان كانت العمليّات العسكريّة التي نفّذتْها المقاومةُ الإسلاميّةُ والوطنيّةُ فعّالةً إجمالاً، لسبب بسيط هو أنّ أولئك الذين خَطّطوا لها اتّبعوا القاعدةَ الأساسيّةَ المتمثّلة في ضرب العدو في مقتله، أيْ في طاقمه العسكريّ وبنْيته العسكريّة، موضعِ قوته واعتداده. وعلى النقيض منهم، سلَك «نمورُ التاميل» في سيريلانكا الدربَ الخاطئَ تمامًا. فباستثناء قتلِ بعض السياسيِّين البارزين انحصر «نجاحُ» النمور الأساسيّ في قتل أعداد كبيرة من المدنيين السينهاليين (والتاميل) ـ وَهُمْ من غير المقاتلين، ولا يَعْنون شيئًا للحكومة التي يحاربها التاميلُ، لا بل إنّ قتلَهم ـ كما صحّت التنبُّؤات ـ تمّ استغلالُه من طرف السلطات الحكوميّة لشنّ مذابح عنصريّة وإرجاعِ قضيةِ الحقوق التامیليّة إلى الوراء عقدًا من الزمن على الأقل.

لكنْ يبدو أنّ أسلوب ضرب العدوّ في غير مقتله، وإيذاءِ الذات في الدرجة الأولى، هو الأسلوبُ الذي يفضّله الفلسطينيُّون أيضًا. فباستثناءات قليلة (وأبرزُها في هذا المجال العمليّةُ التفجيريّةُ المزدوجة في بيت ليد عام ١٩٩٥ والتي أدّت إلى قتل بضع عشرات من الجنود) يَصْعب فهمُ المنطق من وراء مثلِ هذه العمليات. فكيف يُفترض أن يُسْهم القتلُ والتشويهُ العشوائيّان للمدنيِّين الإسرائيليِّين (وبينهم عرب) في تدعيم حق تقرير المصير للفلسطينيِّين، سؤالٌ ـ كما قد يكون متوقّعًا ـ لم يستطع المسؤولون عن تلك العمليّات أن يجيبوا عنه قطّ. فما جدوى أن يَفْقد الإسرائيليُّون إحساسَهم بالأمان إنْ تمّ ذلك بطريقةٍ تُقوّي تأييدَهم لأكثرِ عناصرِ مجتمعهم تطرفًا، بدلاً من أن يحدث ما حَدَثَ في حالتيْ فيتنام ولبنان: وهو تأليبُ أكثر قطاعات الرأي العامّ الإسرائيليّ تنوّرًا أو تعلُّقًا بالمصلحة الذاتيّة ضد تعصُّب حكومتهم؟ ليس على المرء أن يكون من معارضي استخدام العنف أو عبقريّاً في السياسة ليعي الرابطَ بين تلك العمليات وتطوُّرِ العلاقة المشؤومة التي نَمَتْ بين أجهزة أمن السلطة الفلسطينيّة والمخابراتِ الإسرائيليّة ووكالةِ المخابرات المركزيّة الأميركيّة (سي. آي. ايه). بالطبع هناك سياق محدّد لأعمال التفجير، وبالطبع هناك غضب فلسطينيٌّ لا يُمْكن ضبطُه، وهلمجرّاً. ولكنْ لو كانت الأمورُ بهذه البساطة لما كانت ثمّة حاجةٌ إلى «جبهات تحرّر وطنية» وإلى «أحزاب الله» أو إلى أيّ نوع آخر من القيادات السياسية المتطوِّرة (ومن ثمّ الناجحة).

لكنْ، في إشارة تَبْعث على أمل أكبر، وفي الوقت الذي كان فيه مناضلون فلسطينيون يحوّلون أنفسَهم موادَّ متفجرةً على الطريقة التقليديّة، كانت فلسطين تُبْدع أيضًا وسائلَ أخرى في استخدام

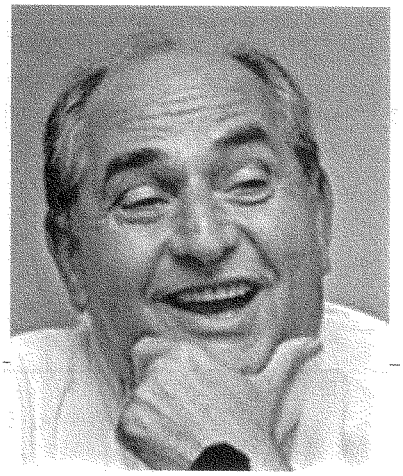

إنّ عشرات الآلاف الذين جاءوا ليَدْفنوا فيصل الحسيني قد حرّروا القدسَ طوال القسم الأعظم من ذلك اليوم

الجسد أداةً لإزالة الاستعمار. وهذه الحالات تختصّ باستخدام الجسد بشكل لاإراديّ (تمّ، من دون شكّ، بالتراضي عقب الوفاة)، من أجل تحقيق أهداف وطنيّة سياسيّة ملموسة. الحالة الأولى، وهي حالةُ الناشط الأكاديميّ البارز إبراهيم أبو لُغُد، تتعلق بتطبيق حقّ العودة بعد موته في ٢٣ أيار (مايو) من هذا العام. فبعد يومَيْن على الوفاة، عاد ابنُ يافا هذا، الذي عاش سنواتِه الأخيرةَ في رام الله وأصبح منذ عام ١٩٤٨ المنفيَّ الفلسطينيَّ الأولَ الذي يعود إلى مسقط رأسه من دون تأشيرة دخول، ليستقرّ ـ على طريقته الخاصة ـ هناك بشكلٍ دائم. وعلى الرغم من أنّ هذا هو بُعدٌ مركزيٌّ من أبعاد موت الدكتور إبراهيم ولم أكن أنا أوّلَ مَنْ لاحظه، فإنّ ما لَفَتَ نظري بوصفه أمرًا لا يقل رمزيّةً هو المأتم نفسُه. فموتُه، شأنه شأن ما كان يَحْدث في حياته غالبًا، جَمَعَ الناسَ بعضَهم إلى بعض من أجلِ سببٍ سياسيٍّ هادف. وفي هذه اللحظة اجتمعتْ تقريبًا كلُّ شذرة من شذرات الوطن المشتَّت، لا في بيروت أو لندن، بل في قلب يافا: فجاء إدوارد سعيد وهشام شرابي من جالية المنفى؛ وراوية الشوّا من غزة؛ وفيصل الحسيني من القدس؛ ووفدٌ كبير من رام الله وبقيةِ الأماكن في الضفّة الغربيّة؛ وجميعُ النوّاب العرب في الكنيست الإسرائيليّ، مع استثناءٍ مريحٍ هو صالح طريف وزملاؤه القوميُّون اليهود ذوو الأصل الفلسطينيّ. وقد كان أضخمُ وفد في موكب من حوالى ١٠٠٠ شخص مؤلَّفًا من سكّان يافا نفسِها. وبدا الأمرُ وكأنّ هؤلاء، برغم الظروف، قد انضمُّوا إلى المأتم لمجرد الإثارة التي تَغْمرهم بها المشاركةُ في حدثٍ عربيٍّ في مدينةٍ تزداد تهوّدًا. وكأنّ هذا التهوّد المتزايد يحتاج إلى إثبات، فجاءت لافتةٌ ضخمةٌ متاخمةٌ للمقبرة وفظيعةٌ في سوقيّتها لتُعْلِنَ أنّ «مركز بيريز للسلام» سيُبنى هناك وشيكًا. ولا شكّ أنّ بيريز وحاشيته سينتعشون من رؤية هذا المشهد حين يَدْخلون مكاتبَهم كلَّ صباح. وإذا كان حُكْمي المسبَّق عليهم ظالمًا، فإنني واثق بأنّ أولئك الفلسطينيّين الذين انخرطوا في أعمال «مركز بيريز» على امتداد السنوات الماضية بتفانٍ واقتناعٍ لن يوفِّروا جهدًا في طمأنتهم.

شَهِدَ يومُ الجمعة التالية، على نحو مأساويّ، جنازةَ واحد من الخطباء الذين كانوا قد تحدَّثوا في مأتم الدكتور إبراهيم، وهو فيصل الحسيني. إنّ موت رجلٍ متواضعٍ في فلسطين هذه الأيام خسارةٌ فادحة. فإذا كان مثلُ هذا الشخص، بالإضافة إلى تواضعه، قد كرّس حياتَه ـ بما لا يَقْبل الشكّ ـ لقضيّةٍ بدلاً من أن يكرّسها لذاته، فإنّ موته يغدو كارثةً حقيقيّةً.

وفي حين كان مأتمُ «أبو العبد» [فيصل الحسيني] فوضًى بالتأكيد، فقد كان أبعدَ ما يكون عن الكارثة؛ ذلك أنّ عشرات الآلاف الذين جاءوا ليدفنوه، مكرِّمين بذلك مجسِّدَ «القدس العربيّة» أبلغَ تكريم، قد حرَّروا المدينةَ ـ بكلّ ما في الكلمة من معنى ـ طوال القسم الأعظم من ذلك اليوم.

انضممتُ إلى الموكب في رام الله، بصحبة صديقي عمر برغوثي وزوجتِه «صفاء.» حين جلسنا في سيارتي الڤولكسڤاغن الغولف كنّا أوّلَ الأمر كئيبين. فقد كان الحاجزُ الإسرائيليُّ على المدخل الجنوبيّ لرام الله مدجّجًا بالجنود، وكان معظمُ المعزِّين يُجْبَرون على الرجوع أدراجَهم دونما تمييز ـ الأمر الذي أَذْهل الإيطاليةَ لويزا مورغنتيني عضوَ البرلمان الأوروبيّ، التي بَدَتْ أنها الشخصُ الوحيد الذي امتلَكَ شجاعةَ أن يُخْبرَ الجنودَ في وجوههم رأيَها في تصرُّفاتهم (بدلاً من أن تَلْعن في سرها آلهتَهم وأمّهاتِهم كما كنّا نفعل كلُّنا).

وما لبثت الأمورُ أن تسارعتْ في التبدّل. فقد كان هناك جنود على طريق رام الله ـ القدس يفوقون ما شاهدناه من جنود طوال حياتنا. ولكنْ بدا أنّ تقييد حرية الفلسطينيِّين كان آخرَ أولويّاتهم، إلى درجةِ أننا حين بلغنا ذلك الجزءَ من الطريق الذي يمرّ بمخيم قلنديا للاجئين (ويقع ضمن حدود بلديّة القدس) قام «الشباب ـ»

الجسد أداةً لإزالة الاستعمار

لأول مرة منذ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ـ باستعراض أسلحتهم علنًا وأَطْلقوا مئات العيارات الناريّة في الهواء على شرف «أبو العبد.» ومع ذلك رفض الجَنودُ الإسرائيليون الردَّ، وكأنّ ما يفعله الشبابُ هو أكثر الأمور عاديّة وتفاهة.

مع وصولنا إلى حاجز «الرام،» حيث كانت آلافٌ مؤلّفة من الفلسطينيّين ينتظرون التابوتَ والموكب، اتّضح تمامًا هدفُ الانتشار العسكريّ الإسرائيليّ الضخم. فهذه المرة كان على حركة اليهود [لا الفلسطينيّين] أن تقيَّدَ من أجل حَقْنِ حمَّام الدم الذي كان سيَحْدث لا محالة. وبدلاً من إيقاف الفلسطينيين عند الأضواءِ الخضر كما هي العادة، لكي يستطيع المستوطنون أن يعْبروا التقاطعاتِ المناسبةَ، كان الجنودُ الإسرائيليون الآن يَطْلبون الانتظارَ ـ ولساعات عدة أحيانًا ـ من تجمُّعاتٍ كان واضحًا ازديادُ إحباطها: تجمّعاتٍ هي خليطٌ من اليهود الأميركيين العديمي التكيُّف والمعتلّين اجتماعيّاً، ومنْ أتباع عصاباتهم الفرنسيين. وكانت «صفاء» ـ وهي من مواليد عكّا، وتتعرّض أكثرَ مني ومن عمر لغرور القوة الإسرائيلية ـ تبدو سعيدةً بهذا المشهد قلبًا وروحًا، بل كانت حقّاً كذلك. وكنتُ لأشعرَ مثلها، سوى أنني كنتُ منشغلاً في الحفاظ على سيارتي سالمةً وعلى راكبيها سالمين؛ فـ «الشباب» كانوا قد انتزعوا من الشرطة الإسرائيليّة المسافاتِ الأخيرةَ من طريق رام الله ـ القدس («وهي أهم طريق سياسية في الشرق الأوسط» على ما واصل عمر ترداد هذه العبارة وكأنّ عليه أن يُقْنِعَ نفسَه بتصديق ما يراه)، وراحوا يُرْشدون السيّارات في كلّ اتجاه ممكن لكي يُثْبتوا أنهم هم حقّاً مَنْ في يده زمامُ الأمور. ولمّا كان قد تحتّم أن يكون كلُّ شابّ في مجتمعنا زعيمًا، فقد تضاربتْ آراؤهم حول الاتجاه الذي ينبغي على كلّ سيّارة أن تسلكه. «يسار، يا غولف!،» «يمين يا غولف!» غير أننا، بعد عدة محاولات مهذّبة مطيعة، قرّرنا أنا وركّابَ السيّارة أنّ متطلبات اللحظة تَقْضي بأن نُعْطي الأولويّةَ لاتجاهاتٍ قادَتْنا في طرقٍ مخصّصةٍ في العادة للسيّارات القادمة من الاتجاه المعاكس.

تطلّب وصولُنا إلى القدس أربعَ ساعات. في العادة تستغرق الرحلة بالسيارة عشرين دقيقة، ولكنها أصبحتْ مؤخّرًا تستغرق ساعةً ونصفَ الساعة على الأقلّ بسبب الحصار الإسرائيليّ المشدّد. غير أنّ التأخير هذه المرة لم يكن فرصةً للتعبير عن الإحباط، بل عن رضًى شخصيّ وجماعيّ ووطنيّ عارم. وهذا الشعور ساد حتى قبل أن يتحول شارعُ صلاح الدين بحرًا من الأعلام الفلسطينية والأعلام العربية الأخرى؛ وقبل أن تُنزع الأعلامُ الإسرائيلية عن مركز قيادة المحكمة العسكريّة فتُحرَقَ وتُستبدلَ بأعلام فلسطينيّة؛ وقبل أن يمزّق العلمُ الشنيعُ المتدلّي من «بيت شارون» في القدس القديمة. وبالطبع حظي أبو العبد بمراسم دفنٍ وطنيّةٍ ملائمة في الحرم الشريف، شأنه في ذلك شأن د. إبراهيم. بالرغم من كلّ ما تمثّله إسرائيل فقد اختُزلتْ هذه الدولةُ إلى متفرّجٍ عاجزٍ في المدينة التي تَزْعم أنها عاصمةٌ أبديّةٌ لها.

في أسبوع كان قد قُتل خلاله أربعةُ مستوطنين في حرب استنزافٍ حدَّت أساليبُها وأنساقُها بشدةٍ من قدرة إسرائيل على الردّ وأَشْعرتها بالعجز المتزايد، بدا الإنجازُ السياسيُّ النابعُ من جنازتيْ إبراهيم أبو لغد وفيصل الحسيني – بالرغم من المآسي الحقيقيّة – مؤشّرًا إلى مرحلةٍ جديدةٍ واعدةٍ من مراحل الانتفاضة الفلسطينيّة الحاليّة ضد الاحتلال الإسرائيليّ. ومع ذلك، وفي غضون ساعات على انتصار جثمان «أبو العبد» انتصارًا بيّنًا على الاستعمار، انفَجَرَ جسدٌ حيٌّ عند مَدْخلِ مَرْقصٍ قرب يافا يرتاده المراهقون والمراهقات الروس. وها نحن الآن نجد أنفسَنا في وضع غريبٍ عجيبٍ لا يمكن استيعابُه، نتوسّل فيه إلى الأوروبيّين أن يُجْبِروا الإسرائيليّين على تطبيق خطةٍ أعدّتْها وكالةُ المخابرات المركزيّة الأميركيّة (سي. آي. ايه.). ألاَ فَارقدْ بسلامٍ يا هوتشي منْ.

معين ربّاني

مدير المركز الفلسطينيّ للأبحاث في رام الله.